مجلة إشكالات في اللغة والأدب — مجلد: 11 عدد: 3 السنة: 2022
ص: 321 - 332 — E ISSN: 2600-6634 / ISSN:2335-1586

التورية الثقافية وتمثلات الأنا والآخر في رواية "مهاجر ينتظر الأنصار" لمعمر حجيج

The cultural oun and representations of the self and the other in the noval of "Mouhadjer yantader el anssar" for Maamer Hadjij

مرج نادية *
Merdj Nadia
مخبر الدراسات التراثية – قسنطينة.
المركز الجامعي عبد الحفيظ بوالصوف– ميلة، (الجزائر)
University Center Abdelhafid Boulasouf - Mila, Algeria
n.merdj@centre-univ-mila.dz

تاريخ الإرسال: 2022/02/24	تاريخ القبول: 2022/05/11	تاريخ النشر: 2022/09/02

ملخص البحث

تسعى هذه الدراسة إلى كشف العلاقة الجدلية بين الأنا والآخر من خلال تقصي الأنساق الثقافية التي تخللت المتن الروائي "مهاجر ينتظر الأنصار"، معلنة عن رؤيا تحمل نسقا ثقافيا ظاهرا متمثلا في علاقة الانسجام والتواؤم بين الأنا والآخر، ونسقا ثقافيا مضمرا يتحرك باتجاه معاكس للمعلن، تمثله نظرة الآخر الفرنسي بمرجعياته الثقافية الكولونيالية للأنا الجزائري، ولأن الأنا والآخر يشكلان نسقا ثقافيا متعدد العلاقات، اتكأت هذه الدراسة على منهج النقد الثقافي وآلياته للكشف عن الأنساق المضمرة في الرواية.

الكلمات المفتاح: أنا – آخر– رواية – نسق مضمر.

Abstract :

This study seeks to uncover the dialectical relationship between the self and the other by exploring the cultural systems that permeated the narrator's novel " muhajir yntazr al'ansar", announcing a vision that carries an apparent cultural system, in the relationship of harmony and twin between the self and the other. and another cultural system appeared in the colonial French cultural view.

Keywords: self – other - Novel –cultural systems.

* مرج نادية : : n.merdj@centre-univ-mila.dz

مقدمة:

تعد ثنائية الأنا والآخر من أهم مباحث الأدب المقارن، إذ تحيل هذه الثنائية الجدلية في الأغلب على الصراع الطبقي والحضاري والثقافي، وهذا الصراع ألهب خيال المبدعين وحرك أقلامهم ما جعل الخطابات الأدبية أرضا خصبة تغذيه، فكانت الرواية في صدارة الأجناس الأدبية التي تبنت هذه العلاقة بين الأنا والآخر إذ لا نجد نصا روائيا إلا وفيه بعض من شظايا هذه الثنائية الجدلية أو ثنائيات ارتبطت بها من حيث المفهوم كثنائية الشرق والغرب، المركز والهامش، الفوقية والدونية، الذكورة والأنوثة، فمقدرة الرواية على احتواء المجتمع والتعبير عنه استطاعت الكشف عن الصراع والصدام القائم بين الأنا والآخر.

اهتم الباحثون في مجال الدراسات الأدبية المقارنة بتقصي صورة الآخر من خلال الغوص في خبايا النصوص الأدبية بغية الوصول إلى الصورة التي يرسمها أدب شعب ما حول شعب آخر وثقافته وعاداته وتقاليده، فالآخر في نظر الشعوب هو من يختلف في لغته أو عرقه أو لونه أو انتمائه الديني والجغرافي، وصورة الآخر تضمر في ثناياها صورة الأنا وثقافته، لذلك فقراءة ثنائية الأنا والآخر لا يمكن أن تنعزل عن قراءة الأنساق الثقافية التي اختفت في اللاوعي الفردي والجماعي.

الرواية الحداثية لامتيازها بالشمولية فهي تختزن مجموعة من الأنساق لا يمكن حصرها في خطابات أو فضاءات محددة، لذلك ستقتصر هذه الدراسة على كشف الأنساق الثقافية المضمرة باعتماد الثنائية الجدلية الأنا والآخر في المتن الروائي"مهاجر ينتظر الأنصار" لمعمر حجيج. من خلال الإجابة عن السؤالين التاليين: كيف عكس النسق الثقافي المضمر هذا الصدام بين الأنا والآخر؟ وكيف استطاعت الثقافة أن تمرر عبر أنساقها هذا الصراع الحضاري والثقافي متوارية خلف المظهر الفني؟

I. مفهوم الأنا والآخر:

كثيرا ما عولج هذا موضوع تحت مصطلحات كثيرة ومفاهيم تختزل هذه العلاقة الجدلية منها: نحن والآخر، الذات والآخر، الأنا والآخر. ولكن يبقى مفهوم هذه الثنائية معقدا ويختلف باختلاف المفكرين وتوجهاتهم فالأنا " لا معنى لها سوى أنها المقابل للأخر Autre تقابل تعارض وتضاد أو أنها المطابق لنفسه المعبر عنه Identité وهو ما نترجمه اليوم بلفظ الهوية أو العينية أي كون الشيء هو هو عين نفسه"[1] فالأنا هي النفس البشرية بما تملكه وتحمله من مميزات ومظاهر ثقافية نفسية أيديولوجية وما تحويه من أفكار وطموحات وصراعات.

وعليه يكون الآخر هو " الكائن المختلف عن الذات، وهو مفهوم نسبي ومتحرك، ذلك أن الآخر لا يتحدد إلا بالقياس إلي نقطة مركزية هي الذات، وهذه النقطة المركزية ليست ثابتة بصورة مطلقة، فقد يتحدد الآخر بالقياس إلي كفرد أو كجماعة معينة وقد تكون داخلية كالنساء والرجال"[2] إذا لتحديد مفهوم الأنا لابد من وجود الأنا/ الذات المركزية نقيس من خلالها ذلك الآخر ونتعرف عليه.

إذا لا وجود لآخر دون وجود الأنا فلا بد من توفر شرط الاختلاف والتمايز حتى يمكن التفريق بينهما فكلاهما يحدد غيره ويحيل إليه، "فكل صراع بين إنسان وإنسان يبتدئ من تموضع كلا الطرفين في حيزي الآخرية، فلا يمكن أن يحدث بينهما صراع ما لم يكن كل منهما آخر بالنسبة للآخر"[3] فبمجرد قول عبارة صورة الآخر يتبادر إلى الأذهان مفهوم الذات/الأنا.

ينشأ مفهوم الآخر عن فكرة الصراع والرؤية المتعالية للأنا، وعليه فالجدلية القائمة بين الأنا والآخر تكون لأسباب " مادية، جسمية، وإما عرقية أو حضارية أو فروق اجتماعية أو طبقية"[4]، لذلك تكون الذات العربية مقابلة للآخر الغربي، والشرق مقابلا للغرب، فالآخر يعني شخصا آخر أو جماعة مغايرة، قد ينتمي لنفس المجتمع الذي أنتمي إليه، ويشترك معي في الثقافة والدين والوطن (نساء/ رجال)، أو قد يختلف عني تماما في اللغة والعقيدة والوطن ويحمل سمات ثقافية وحضارية متمايزة.

وبذلك نجد الكثير من العلاقات داخل النّص الأدبي مفيدة من أجل "دراسة (الآخر)، مثلاً: دراسة العلاقات الذكرية والأنثويّة ضمن الانتساب إلى ثقافات متنوعة (الرجل العربي يقيم علاقة مع المرأة الغربيّة أكثر من المرأة العربيّة مع الرجل الغربي) وهناك الوصف المخالف الذي يساعد على تقديم صورة الآخر من خلال ثنائيات متناقضة تدمج الطبيعة والثقافة مثلا: متوحش مقابل متحضّر، وبربري مقابل مثقف، وإنسان مقابل حيوان، ورجل مقابل امرأة، وكائن متفوّق مقابل كائن ضعيف"[5] .

وقد رصدت الرواية العربية جدل العلاقة بين الأنا والآخر وطرحتها بوجهات نظر مختلفة " تختلف باختلاف وجهة نظر الروائي، قد يبرزها بصورة، معقدة، وشائكة وقد يظهرها بصورة واضحة خاصة، إذا اقترنت بالآخر، وهو العدو بحد ذاته، لتصبح الأنا في موقع صدامي، وصراعي على الدوام معه"[6]؛ حيث يصوغ الروائي العلاقة بينهما عن طريق المقابلة صورة الأنا / الذات أو النحن العربي وصورة الآخر/ الغربي المتحضر، لتصبح بذلك هذه الثنائية الجدلية الأنا والآخر قيمة مركزية في الخطاب الروائي يظهر صراعها جليا في بعض البنى النصية، وينصره في بنى أخرى حتى يوهم المتلقي بالتواؤم والانسجام مختفيا تحت المضمر النسقي.

ويعد النسق الثقافي المضمر البؤرة المركزية التي يقوم عليها النقد الثقافي في مقاربته للخطابات الأدبية، ومهمة الناقد الثقافي أن يكشف التيمات الثقافية المضمرة داخل البنى النصية، للكشف عن أنساق ثقافية طالما غفل عنها النقد الأدبي لاهتمامه بالقضايا الجمالية البلاغية، والنسق الثقافي لا يتحدد من وجوده المجرد بل يستند على الوظيفة النسقية والتي تظهر حين " يتعارض نسقان أو نظامان من أنظمة الخطاب أحدهما ظاهر والآخر مضمر، والمضمر ناقضا وناسخا للظاهر ويكون ذلك في نص واحد أو فيما هو في حكم النص الواحد"[7].

هذا النسق لا يكون نتاج مؤلف؛ بل هو نتاج ترسبات تكدست عبر التاريخ أو مع اللغة، وبسطت سلطتها وهيمنتها على عقول الجماهير التي أصبحت تتقبلها دون شروط، وترضى بها بل تدافع عنها في أحيان كثيرة، وهذا المضمر النسقي الثقافي يجعل الخطاب " يقول من داخله أشياء ليست في وعي المؤلف، ولا هي في وعي الرعية الثقافية، وهذه الأشياء المضمرة تعطي دلالات تتناقض مع معطيات الخطاب سواء ما يقصده المؤلف أو ما هو متروك لاستنتاجات القارئ"[8].

فالثقافة حسب رأي " الغذامي" هي المؤلف الحقيقي للخطابات، وباستطاعتها إنتاج جماليات الخطاب الثقافي، وللكشف عن الأنساق المضمرة يجب تأويل الخطاب باعتباره بنية ثقافية، ودراسته ضمن سياق ثقافي واجتماعي وتاريخي ينتمي إليه، وهذه الأنساق في اعتبار النقد الثقافي لن تكون إلا مضمرة، فهي تنتج عن مجموعة من العلاقات المترابطة والمنسجمة تمتاز بالمرونة في الانتقال من جيل إلى جيل والتأثير السريع على الخطابات المختلفة لاختبائها خلف الجمالي في النص، فيصبح الخطاب قادرا على "أن يقول غير ما قاله وأن يغلف أيضا عددا كثيرا من المعاني وهذا ما يسمى بوفرة المدلول بالنسبة للدال الواحد والوحيد وعليه فإن الخطاب امتلاء وثراء لا حد لهما"[9] فالدلالات والمعاني تتجاوز مقصدية المؤلف إلى مقصدية كلية تكون للثقافة السلطة في تحديدها.

II. جدل الأنا والآخر في العنوان:

يعد العنوان مفتاحا أساسيا لقراءة الإبداع الأدبي، كونه أقصى اقتصاد لغوي، فهو العتبة الأولى لولوج عالم النص واستكناه دلالاته وخباياه، وهو ما يجعله تحديا مزدوجا، فهو يمثل تحديا أمام المبدع الذي يرغب إخفاء المعنى الذي يرومه، وتحديا أمام القارئ الذي يحاول فك شفراته وكشف دلالاته، ولأن المتلقي هو المنتج الأول لدلالة العمل الفني، والعنوان يعد أول التمظهرات اللغوية قبل اقتحام النص الداخلي "لذلك تناوله المؤلفون بالعناية والاهتمام خاصة في الإنتاج الروائي الحديث والمعاصر، كل هذا دفع إلى

التفنن في تقديمه للمتلقي، حتى يكون مصدر إلهامه، وحافزاً للبحث في أغوار هذا العمل الفكري، مع مراعاة أذواق الجمهور في الوقت نفسه وحاجيات الساحة الأدبية، التي هي سوق رائجة لهذه المادة الخام التي تحتاج إلى متلقي ذكي يفكك شفراتها"[10].

والعنوان في الرواية "**مهاجر ينتظر الأنصار**" بما يتضمنه من بعد تناصي مع التاريخ الإسلامي وهجرة النبي صلى الله عليه وسلم، يقود المتلقي للفهم بأن هذا المهاجر في انتقال إلى مكان أفضل، مكان جديد يحظى فيه باستقبال رائع ويتهافت الأنصار مهللين بقدومه، ويستقبل استقبال الأبطال والفاتحين، إلا أن السياق التاريخي للهجرة يضمر دلالات تحيل إلى الاضطهاد الذي مارسه الآخر ضد الأنا انطلاقا من إحساسه بالتفوق، والحصار الذي فرض ضد كل من يعتنق دينا مخالفا عن دين الجماعة المسيطرة، كما تمثل الرحلة الشاقة في الصحراء والخوف من المتربصين، فالهجرة ظاهريا رمز للانتصار والبداية الجديدة لكنها ضمنيا تحمل دلالة الرفض المجتمعي للأنا واضطهادها والرفض لكل فكر مختلف،.وعلى ضوء هذه الدلالة سنقارب المتن الروائي في سياقه الثقافي، وفق جدلية الأنا والآخر والتي تجسدت من أول عتبة في الرواية.

III. المتن الروائي بين الأنساق الثقافية والدلالة المضمرة:

تعد فكرة التمايز والتفاضل فكرة متأصلة في التاريخ البشري، وكانت سبب أول جريمة بين بني البشر، قال تعالى:"وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ"[11] فالصراع من أجل المكان والتميز صفة بشرية لا يمكن العدول عنها بسهولة، وتبلورت هذه الفكرة حديثا في الثقافة الكولونيالية الغربية، التي تبنت النظرة الفوقية المتعالية، وأسست لثنائية المركز/الهامش، الأنا/الآخر.

وقد شكلت ثنائية الأنا/ الآخر البؤرة المركزية التي اتكأ عليها المؤلف في بناء عالمه الروائي "مهاجر ينتظر الأنصار"، كون الرواية بنية ثقافية تتخللها جملة من الأنساق الظاهرة تحيل إلى أنساق مضمرة مستترة تكشفها التورية الثقافية كمصطلح إجرائي يستوعب "بعدين أحدهما مضمر ولا شعوري وليس في شعور الكاتب فهو مضمر نسقي لم يكتبه فرد بل كان نتيجة عمليات تراكم وتواتر حتى صار عنصرا نسقيا يتلبس الخطاب"[12]، وعليه سنحدد مجالين لدراسة هذه الثنائية في الرواية، الآخر باعتباره مقابلا للأنا مختلفا عنها ثقافيا واجتماعيا وإيديولوجيا، والآخر متعلقا بالأنا ذاتها حيث يتم اكتشاف الاختلاف والتمايز في صورها الأولى داخل تخوم الأنا.

أولا: الأنا (الجزائري)/ الآخر (الفرنسي)

يسعى الروائي "معمر حجيج" إلى إبراز النظرة المتطرفة والعدائية لكل ما هو جزائري، وكل ما يميز هذا المجتمع من ثقافة وعادات وتقاليد، والتي تعود غالبا إلى الدين الإسلامي، فالآخر يسعى دائما لخلخلت كل ما يمثل الهوية الجزائرية العربية الإسلامية، وهو ما يظهر جليا في الرواية حين استعمل الأستاذ السربوني شخص "كولومبوس" (Columbus) لوصف بطل الرواية مراد وهو طالب متميز في جامعة سوربون، طلب منه أستاذه أن يحضّر أطروحة دكتوراه الدولة في علم اجتماع الطوائف الدينية، وأن يحاول فك لغز المرأة الميزابية، يقول مراد:" كنت متفوقا على كل الفرنسيين، وعلى رأس دفعتي في الدراسات المعمقة..كنت أتخيل نفسي كأنني إمبراطور العلوم في جامعات بقاع الدنيا كلها..اختارني أستاذي السربوني المرموق لإنجاز بحث أكاديمي لتحضير أطروحة الدكتوراه الدولة، وأكون له كولومبس جزائري، واكتشف له قارة غرداية"[13].

وكريستوفر كولومبس هو أشهر رحالة ينسب إليه اكتشاف القارة الأمريكية، فيفسر المتلقي هذا التشبيه بأن "الأستاذ السربوني" يريد أن يحفز "مراد" ويحثه ليصبح مكتشفا يكتشف قارة سادسة متمثلة في لغز المرأة الميزابية، إلا أن كولومبس يضمر دلالات في شخصه، فهو يعد أكبر مجرم في تاريخ البشرية، فاكتشافه هذا أدى إلى إبادة عراقة حضارية وإنسانية ومجتمعات بأكملها (حضارة الهنود الحمر) التي تعرضت لحرب تصفية وتنقية عرقية عنصرية، قادتها الجيوش الأوربية المعتزة بمركزيتها، كما أسس لخطاب يبرر الاستعمار –فحسب رأيه– الأراضي المكتشفة قابلة للاستيطان لأن سكانها أقل تحضرا مقارنة بالأوروبيين، وهذه التورية الثقافية تبرز لنا هذه العداوة المتجذرة بين الأنا (الجزائري) والآخر (الفرنسي)، فهذا الأوروبي بحثّه لمراد على اكتشاف لغز المرأة الميزابية؛ إنما هو بحث عن خلخلت هذا المجتمع الميزابي المحافظ، ومحاولة لإعدام الثقافة الجزائرية وما يتصل بها من فكر عربي إسلامي.

ويطمح هذا الأستاذ السوربوني أن يتشبع مراد بحضارة الأنوار الممجدة للعقل والمناهضة لكل أشكال التدين، ويأمل أن يرقص على أنغام بحث مراد، هذا البحث الذي سيخلد في الأذهان كلحن أورفيوس الأسطوري، يقول:"يا مسيو مراد كن ك(أورفيوس) تسحر أسماعنا بصوت بحثك الريان وموسيقاه حق يرقص لك الشجر والحجر، وتتغير مجاري أنهار المعرفة في كل بقاع الدنيا، ولا تتركه للدغات أفاعي الصحراء، فيموت كما ماتت حبيبة أورفيوس بلدغة ثعبانا وكن كفلاسفة الأنوار حين رفعوا شعارا خلال

الثورة الفرنسية: "لتكن لديك الشجاعة على استخدام عقلك ، وأن ذاك يمكن افتكاك حريتك من وصاية أي كائن من كان.."[14].

يصرح مراد عن حقيقة هذا البحث بقوله:" فرض علي أستاذي بعد أخذ ورد أن أحضر أطروحتي عن المرأة اللغز في المجتمع الميزابي..هي كلؤلؤة مسجونة في صدفتها. ويجهلها المستشرقون الفرنسيون، فأراد أن يفتح هذا القمم ببحثي"[15]، بحث اقترحه الأستاذ السوربوني ليفتح المجال أما المستشرقين لبث سمومهم في المجتمع الميزابي الذي وقف صامدا أمام كل محاولات اختراقه، وهذا ما يوضح أن الآخر يمتاز بذكاءٍ وخبثٍ في الوقت نفسه، فهو لا يكشف ما يُكنّه من مشاعر حقيقية داخله اتجاه " الأنا"، وإنّما يتوارى خلف عباءة العلم وحضارة الأنوار.

وإن كان مراد قد استغرب من اهتمام أستاذه بالمرأة تحديدا، يقول:" لماذا هذا الفرنسي الذي أسلم حديثا مهتم أكثر من اللازم بالمرأة؟ هل يبحث عما يسلحه سلحا من المجتمع الغربي الذي يفوح بكل الروائح التي صارت لا تروقه؟ ألم يجد ما ايخرجه من جنة الغرب غير المرأة كما أخرج آدم وحواء من جنتهما؟ أمازال الحنين إلى معرفة مكامن ضعف الشعوب والأقوام والطوائف والأمم لإعادة استعمار أوطانها في يوم من الأيام؟"[16] لكن هذا التساؤل لم يلبث أن تلاشى أمام ثقته بأستاذه الفرنسي.

ثانيا: الأنا (الجزائري)/ الآخر (الجزائري)

بدلا من فكرة التعايش والانكفاء على الذات بين أبناء الوطن الواحد، اتجه المؤلف لمعالجة فكرة الآخر المنشق عن الذات نفسها، فطرح فكرة الآخر المتطرف، والآخر الذي يرفضك لأنه لا يستوعب فكرة الاختلاف، والآخر الممثل للسلطة.

أ/ الآخر الأهلي المتعصب:

بالرغم من تسلحه بالثقافة الأكاديمية والحقائق العلمية لم يستطع مراد الاندماج في العالم الميزابي، لأنه يمثل الآخر في نظر الميزابيين، فغزت نفسه آلاف الأسئلة التي وقف حائرا ولم يستطع الإجابة عنها" كيف أندمج حقا في المجتمع الميزابي؟ كيف أتجاوز الوجود الحجري للحياة في واد ميزاب؟ كيف ألج إلى لب الأسرة الميزابية؟ أأجد الترحيب أم التبرم والرفض؟ كل الميزابيين الذين أتعامل معهم وأعمل معهم في الثانوية يجاملونني بتحيات وعبارات تنتهي عند خلقها لجدار نفسي متين، وهوة سحيقة.. كيف أردم هذه الهوة"[17].

فمراد الإخواني السني أصبح مرفوضا في غرداية بسبب انتمائه للجامعة الفرنسية أولا، وانتمائه إلى المذهب السني ثانيا " هو يرى نفسه شمسا من المعرفة تسْطع على غرداية، وهم يرون فيه ليلا حالكا من أبناء الحركى، وأذناب الاستعمار سلط على مدينتهم"[18] لذلك نبذ وطرد من غرداية لا لسبب بل لزعمهم بأنه من سلالة العبيديين، ويطمح للقضاء على بقايا الدولة الرستمية.

فهو غريب عن مجتمعهم الميزابي الإباضي وظلّ كذلك رغم إتقانه اللغة الميزابية التي لم تشفع له للولوج إلى عالم بني ميزاب.

وهو ما جعله يتعرض للإهانة والازدراء بتهمة الاختلاف العقائديً أو الفكري " لم أشرب كؤوس المرارة القاتلة في حياتي بمثل هذه الوحشية اللسانية الأكثر إيلاما من سكين تلاعب رقبتي حين وصفوني بالفاسق والزنديق، بل أدى بهم فجورهم في الخصام باتهامي بأنني لا أتورع حتى في ارتكاب الفواحش مع المحارم"[19].

نخلص في الأخير إلى أن نظرة "**الأنا**" اتجاه " **الآخر**" يميزها الخوف والكره والرفض انطلاقا من رفض كل اختلاف ثقافي على الرغم من الانتماء لوطن واحد.

ب/ الآخر الأهلي المتطرف:

تمثل الحرب الأهلية الجزائرية، أو ما عرف بالعشرية السوداء بؤرة تشظي الذات الجزائرية، إذ أصبح الموت مخيما على البلاد وتصدرت أخبار الضحايا والمجازر يوميات الجزائري، وكل هذا عبر عنه معمر حجيج ممثلا في فقد مراد لخطيبته الصافية، التي اغتالتها الأيدي المتطرفة بدون ذنب اقترفته، فيد الإرهاب قضت أن تكون لحظة الرعب والخوف مشهدهم الأخير، لا لسبب إلا أنه لم يفهمك ولم يبذل جهد لفهمك، فقد قرر الآخر الحكم عليك بالموت لأنه قرر أنك ضده، يقول مراد:" لم يقتلوا الصافية بل حاولوا قتل أمة تتأهب للنهوض من كبواتها.. لم يقتلوا الصافية، بل حاولوا قتل صوت الجزائر في كل بقاع الدنيا.. لم يقتلوا الصافية، بل حاولوا قتل الحرية الحائمة بجناحي العزة والكرامة في كل الربوع، لم يقتلوا الصافية، بل حاولوا قتل الأمل في كل القلوب المعذبة الكتيبة اليائسة.."[20]، فماتت الصافية التي تمثل الأنا، وماتت معها الأرواح النقية، ماتت الصافية ومات الصفاء في الضمير الفطري والإنساني، وماتت فكرة تقبل الآخر المختلف، وانتهت طهارة القلب وصفاء الصدر، فالصافية تمثل الهوية الجزائرية الأصيلة المتقبلة للآخر، فهو ليس أفضل من الأنا أو أسوء منه إنّما هو مختلف عنه فقط.

ج/ الآخر الأهلي السلطوي:

السلطة في العالم الثالث غالبا ما تكون سلطة توجه اهتمامها لما يلهي الشعب عن مشاكله، ولا تسعى لخلق حلول، والسلطة وقت العشرية السوداء تملصت من المسؤولية، وتركت الشعب يعاني في الأزمة منفردا يتخبط بين الخوف والقهر، وكان الإعلام/السلطة ينفي كل المجاز والتفجيرات، فالأزمة تصورت في الإعلام الخارجي بينما التعتيم في الإعلام السلطوي الجزائري كان سيد الموقف، وهو ما جاء على لسان الشيخ الجليل الذي كان من المجاهدين وقت الثورة، يقول:"وقرأت عن جرائد (لاسبد أنحاحيوهم صاحب العصا): جريدة الوطن تعشق أن تعيش مطلقة بلا وطن، و تركع للوثن، وجريده الخبر تأكل الغلة، وتسب الملة كي تنعم بالفنادق الفخمة، وجريدة الشروق تبشر الشعب المغبون بسنين كلها خيرات بلا سحب، ورعود وسيول وبروق"[21] فالصحافة التي تمثل صوت الشعب/الأنا اختارت أن تعزف على وتر السلطة/الآخر، وتكون بوقا ينفث من خلاله الحكام أفكارهم ورؤاهم.

الإعلام الذي انحاز إلى السلطة، وصور الواقع بعيون رجال السلطة، ونمق صورهم كونهم حماة الوطن، هذه الصورة حطمها والد مراد وهو رجل سياسي أظهر حقيقة رجال السياسة الجزائريين، الذين لا يهتمون إلا بخداع الشعب وقمع حريته، بل القضاء على كل تهديد يمكن أن يطيح بكراسيهم، يقول واصفا المبادئ التي يعتز بها رجال السياسة الجزائريين: إنهم "يطبقون الحكم الشعبية: إذا أكلت، فخلى غيرك بلحس أصابعه ليبقى جائعا، ويصافحك بحرارة لتكرم أصابعه باللحم أكثر، وجوع كلبك يتبعك، وعامل الناس بحسب معادنهم ومنازلهم، وشاورهم مراوغة لا حقيقة، وقل لهم أشياء، وافعل عكسها؛ ومن ثم تتمكن بهذه التركيبة العجيبة تنويم عقولهم، فلا يكتشفون أسرارك حين تتلاعب، وتقفز برجل على حبال العلمانية لترضية أسيادك من وراء البحار، والرجل الأخرى على حبال السلف الصالح لتسويق البضاعة المحلية، والغاية من هذه الوصفة السحرية ضمان استمرار نهجك، واستعلاء حزبك، وبقائك في الحكم بقبضة من حديد، ودغدغة رقاب الشعب بمراوح حريرية تنسيهم الوجوه البشعة التي يتطاير منها شرر كل أنواع الدجل"[22]، وهذا الوصف المتكئ على الأمثال الشعبية يبرز حقيقة مكر رجال السياسة الذين يسعون لتحقيق مصالحهم ومصالح أسيادهم دون اهتمام بوطنهم أو بشعبهم.

ج/ الذات كآخر:

مراد بعد محاولاته إتمام البحث الذي يشغل تفكيره، ومحاولاته الفاشلة للاندماج في المجتمع الميزابي، لجأ إلى خلق شخصية خيالية سماها الضاوية علها تجيب عن تساؤلاته وتكشف له سر المرأة الميزابية، لكنها فاجأته بأسئلة لم يستطع الإجابة عنها، فشخصية مراد المتعطشة لكشف سر المرأة الميزابية،

وقفت عاجزة أمام تساؤلات امرأة ميزابية خيالية "احتار مراد من هذه الألغاز المتهاطلة عليه من الضاوية، ولكنها كان يحس فيها عذابا .ومتعة في آن واحد..كان ينتظرها بشغف شديد، ويخاف منها أن ترمي عقله في بحر الجنون.. كانت الحيرة العبثية ما فتئت تطحنه من الداخل ولا طحين لها!.."[23]، وهو ما يحيلنا إلى الصراع القائم في ذات مراد ونفسها الممثلة في الضاوية، والضاوية مشتقة من الضوء لتمثل الجانب المنير في شخصية مراد، الجانب الطاهر الذي لم يتلوث بالأفكار السوربونية "ودعوتني (الضاوية) دون إذن مني لأنك تحب العيش في الظلام، ولا تصورني إلا تمثالا لملكة الجمال الميزابية في المنام، ولا ترى إلا بعيني اللامعتين الصافيتين كالبلور، السوداويين كظلام عقلك السربوني الحالك؛ إذا أرت أن تتكلك أمك فاظهر إلى النور"[24]، فهذه المرأة جعلت مراد يفهم حقيقة الوجود، وبالتالي حقيقة الإنسان المتمثلة أساسا في لغته " الوجود يخشى الفراغ المعدوم، فإن لم يجد ما يملأ به يمتلئ باللسان، فيعلمك الضحك كمخلوق من بني الإنسان لم يبلغ بعد سن الفطام؟! أنسيت يا سيدي مراد الأوراسي بأنني الضاوية"[25].

بعد هذا الرفض الذي قوبل به مراد من طرف الآخر (الميزابيين- السلطة- التطرف-الذات) خرج في رحلة عرفانية مع الشيخ الجليل، ونأى عن مواصلة هذا البحث الذي يتغلل في تلك الجزئيات التي تزيد التمزق في المجتمع الجزائري، واستطاع أن يكشف جوهر المشكلة المتمثل في الذات الإنسانية وليست في المرأة الميزابية أو الرجل الجزائري ولا حتى الآخر الفرنسي.

خاتمة:

إن تجاوز النقد الأدبي وجمالية النصوص، والانزياح نحو النقد الثقافي يكشف لنا أنساق مضمرة، تجلت في علاقة مراد بأستاذه الفرنسي التي تظهر علاقة تواؤم وتوافق لكنها تضمر علاقة صراع واستلاب حضاري، ولقد تجاوزت ثنائية الأنا والآخر في رواية معمر حجيج "مهاجر ينتظر الأنصار" ثنائية الشرق والغرب وجسدت الصراع الذي يكون بين الذوات المنتمية إلى نفس الوطن بل ونفس الدين.

هوامش:

[1] محمد العابد الجابري: الإسلام والغرب الأنا والآخر، (2009)، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، ص21.

[2] نادر كاظم: تمثيلات الآخر(صورة السود في المتخيل العربي في العصر الوسيط)، (2004)، المؤسسة العربية للدراسات والنشر (بيروت)، ط1، ص20.

[3] محمد صابر عبيد: جماليات التشكيل الروائي، (2012)، عالم الكتب الحديث (الأردن)، ط1، ص56.

[4] حسن شحاتة: الذات والآخر في الشرق والغرب (صور ودلالات وإشكاليات)، (2008)، دار العالم العربي (القاهرة)، ط1، ص17.

[5] ينظر: ماجدة حمود: مقاربات تطبيقية في الأدب المقارن، (2000)، منشورات إتّحاد الكتّاب العرب (سوريا)، ص256.

[6] محمد صابر عبيد: جماليات التشكيل الروائي، ص63.

[7] عبد الله الغذامي: النقد الثقافي(قراءة في الأنساق الثقافية العربية)، (2005)، المركز الثقافي العربي (الدار البيضاء)، ط3، ص77.

[8] المرجع نفسه، ص 75-76.

[9] ميشال فوكو: حفريات المعرفة، تر: سالم يخوت، (1987)، المركز الثقافي العربي(الدار البيضاء)، ط2، ص110.

[10] رضا عامر، (2010/11/25)، دلالة العنوان في المجموعة القصصية على الشاطئ الآخر لزهور ونيسي، جريدة دنيا الوطن، (2021/11/10)،
https://pulpit.alwatanvoice.com/articles/2010/11/25/214937.html

[11] سورة المائدة، الآية 27.

[12] عبد الله الغذامي: النقد الثقافي(قراءة في الأنساق الثقافية العربية)، ص70.

[13] معمر حجيج: مهاجر ينتظر الأنصار، (2016)، دار قانة للنشر والتوزيع (الجزائر)، ط1، ص13.

[14] المصدر نفسه، ص153.

[15] المصدر نفسه، ص17.

[16] المصدر نفسه، ص30.

[17] المصدر نفسه، ص 16.

[18] المصدر نفسه، ص 103.

[19] المصدر نفسه، ص 107.

[20] المصدر نفسه، ص136.

[21] المصدر نفسه، ص55.

[22] المصدر نفسه، ص 152.

[23] المصدر نفسه، ص 78.

[24] المصدر نفسه،ص75.

[25] المصدر نفسه، ص186.

قائمة المراجع:

* القرآن الكريم

1- حسن شحاتة: الذات والآخر في الشرق والغرب (صور ودلالات وإشكاليات)، (2008)، دار العالم العربي (القاهرة)، ط1.

2- رضا عامر، (2010/11/25)،دلالة العنوان في المجموعة القصصية على الشاطئ الآخر لزهور ونيسي، جريدة دنيا الوطن، (2020/11/10)،
https://pulpit.alwatanvoice.com/articles/2010/11/25/214937.html

3- عبد الله الغذامي: النقد الثقافي(قراءة في الأنساق الثقافية العربية)، (2005)، المركز الثقافي العربي (الدار البيضاء)، ط3.

4- ماجدة حمود: مقاربات تطبيقية في الأدب المقارن، (2000)، منشورات إتّحاد الكتّاب العرب (سوريا).

5- محمد العابد الجابري: الإسلام والغرب الأنا والآخر، (2009)، الشبكة العربية للأبحاث والنشر.

6- محمد صابر عبيد: جماليات التشكيل الروائي، (2012)، عالم الكتب الحديث (الأردن)، ط1.

7- معمر حجيج: مهاجر ينتظر الأنصار، (2016)، دار قانة للنشر والتوزيع (الجزائر)، ط1.

8- نادر كاظم: تمثيلات الآخر(صورة السود في المتخيل العربي في العصر الوسيط)، (2004)، المؤسسة العربية للدراسات والنشر (بيروت)، ط1.

9- ميشال فوكو: حفريات المعرفة، تر: سالم يخوت، (1987)، المركز الثقافي العربي(الدار البيضاء)، ط2،